1- نشأة الإيديولوجيا و تطورها:

يعتبر مصطلح الإيديولوجيا حديثا نسبيا، إذ لا يتجاوز في نشأته و استخدامه المائتي عـــام. و لا تعني حداثة اللفظ أن الناس لم يكونوا من قبل ينظمون حياتهم السياسية والاقتصادية و الاجتماعية وفقا لفكر محدد، و إنما كان المعتقد الديني هو الذي يحدد هذه الأنظمة جميع، و خاصة تلك الأديان التي تحرص على تنظيم الحياة اليومية للإنسان مثل التلمود لليهود، و القرآن و الحديث للمسلمين. أما بالنسبة للمسيحيين فبانحسار سلطان الدين عن الفكر الأوروبي في عصر النهضة و ما تلاه، كان لا بد للإيديولوجيا أن تشغل هذا الفراغ، فأصبحت نزعة معارضة للتفكير الميتافيزيقي.

يعود الفضل في استخدام مصطلح الإيديولوجيا إلى المفكر الفرنسي **"أنطوان دستيت دي تراسي"** (1754 – 1836) **"Antoine Destut de tracy"** في كتاب له بعنوان " تخطيط العناصر الإيديولوجية" المنشور عام 1801. و قد كان يهدف من ورائه إلى تأسيس علم جديد هو: علم الأفكار، و الذي "يقصي كل معرفة تقوم على الإيمان و الاعتقاد.إن قصور المعرفة من وجهة نظر **"دي تراسي"** لا يعود إلى ضعف فطري في العقل الإنساني، و لكن إلى قصور في منهج التفكير. إن العقل يجب أن يتغلب على كل الأساطير و الخرافات، والمعرفة ينبغي أن يقودها التفكير السليم. و هكذا فإن علم الأفكار هو العلم الأولي الذي يوجه كل العلوم الأخرى، و الإيديولوجيا هي نظرية النظريات". (1)

و في الوقت الذي يرى فيه **"عبد الله الكندي"** أن" **دي تراسي** "عندما بدأ في تأسيس علم الأفكار قد التزم بالمعنى اللغوي المقابل للمصطلح، حيث أن مصطلح الإيديولوجيا مركب من مقطعين: Idea و معناها فكرة، و Logos و معناها علم، لتكون ترجمته اللغوية الدقيقة هي" علم دراسة الأفكار "، واضعا نظاما متكاملا من الخطوات المنهجية التي يتم الاعتماد عليها في الوصول إلى الحقيقة الكلية، مستبعدا كل التبريرات التي يصنعها البشر أنفسهم، فيستغنون بما يملكون من تفسيرات جاهزة للظواهر عن دراستها و فحصها بشكل متعمق يصل إلى إجابات جديدة و أسئلة أخرى، يذهب **"باتريك كونتان PATRICK QUANTIN"** إلى أنه من السذاجة الوقوف عند هذا المعنى للإيديولوجيا، بل على العكس من ذلك تماما ينبغي ربط هذا الإسهام بنتائج الثورة الفرنسية، فأمام الدمار الذي خلفته هذه الثورة، جاءت الإيديولوجيا بمثابة دعوة صريحة لضرورة خضوع السياسي للمثقف، فالهيمنة ينبغي أن تكون للفكر العلمي لا للممارسة السياسية. و معنى ذلك أن مصطلح الإيديولوجيا قد وظف منذ نشأته لأغراض إيديولوجية. و هو الأمر الذي ينفيه **"كارل ماتهايم KARL MANHEIM "**مؤكدا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن الإيديولوجيين كانوا يشكلون مجموعة من الفلاسفة الفرنسيين الرافضين للميتافيزيقا، والداعين إلى إرساء العلوم الثقافية على قواعد عقلانية منطقية، و أن هذا المصطلح لم يرتبط بالسياسة إلا على يد" **نابليون بونابرت**". ففي فرنسا أسس "**دي تراسي**" هذا العلم بهدف القضاء على الخرافات و الأوهام، و انتشال المجتمع الفرنسي من جمود و تخلف فكري باستخدام منهج علمي يبحث عن الحقيقة، و في فرنسا أيضا نسف" **نابليون بونابرت**"، الذي كان يومها العضو الفخري لمعهد فرنسا الذي أسسه "**دي تراسي**" هذا المعنى، عندما انسحب من موسكو مضطرا و عاد ليصف رفقائه في ذلك المعهد من أمثال الفيلسوف الحسي "**كوندياك** Condillac" و الطبيب" **كابانيس Cabanis**"، والأخلاقي "**فولني Volney**"، الذين اتخذوا موقفا معارضا لتوجهاته الاستبدادية وأطماعه الاستعمارية، بأنهم نظريون إيديولوجيون، لا يدركون من القضايا إلا جانبها النظري، دونما التفات أو اهتمام بالجوانب العملية خاصة في مجال السياسة. و وصف أفكارهم بأنها مجرد تجريدات و تخمين غير مسؤول، بل شبههم بمن يعيشون في برج عاجي، و يدلون بآرائهم في المسائل السياسية من غير تمرس أو خبرة. وبديهي أن هذا المعنى يختلف عن المعنى الاصطلاحي للفظ. و الواقع أن هذا المضمون السلبي للإيديولوجيا لم يستمده" **نابليون بونابرت**" من الواقع و التجربة الإنسانية، بل إنه تجسيد لخوفه من الإيديولوجيا و وظيفتها النقدية التي كانت وراء موقفه هذا. و مما هو جدير بالذكر، أن المناقشات التي دارت بين "**نابليون**" و الإيديولوجيين قد شكلت مضمون هذا المفهوم لسنوات طويلة جدا.

بانتقال عرش الفكر إلى ألمانيا خلال القرن التاسع عشر، انقلب المفهوم و أصبح التاريخ بدلا من العقل هو مناط الحقيقة و مناط المطلق، و شهد مفهوم الإيديولوجيا تطورا هاما على يد "**كار ل ماكس KARL MARKS**" الذي أكسبه صبغة مادية واضحة. و هكذا توارى ذلك المفهوم الذي تبناه الإيديولوجيون ليحل محله مفهوم "**ماركس**" ذو الأساس التحليلي للبنية الاجتماعية. لقد أسبغ "**ماركس**" على المصطلح معنى التعبير عن مصالح الطبقة السائدة، و الستار الذي يخفي خبايا السيطرة و النهب و الاستغلال، ذاهبا إلى أن البروليتاريا وحدها هي القادرة على مجاوزة حالة التشويه الإيديولوجي هذه، بالسيطرة على وسائل الإنتاج، والقضاء على التفاوت الطبقي.

لقد شهد التصور المادي للإيديولوجيا تطورات عديدة،و يعتبر التعريف الوارد في الموسوعة الروسية تعبيرا نموذجيا عن هذه التطورات التي انتهت إلى أن: "الإيديولوجيا هي منظومة الأفكار و وجهات النظر السياسية و القانونية و الأخلاقية، الجمالية و الدينية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والفلسفية... الإيديولوجيا جزء من البناء الفوقي، و هي بهذه الصفة تعكس في النهاية العلاقات الاقتصادية. ففي مجتمع من الطبقات المتطاحنة يتطابق الصراع الإيديولوجي مع الصراع الطبقي. و قد تكون انعكاسا حقيقيا أو خادعا للواقع، فمصالح الطبقات الرجعية تغذي إيديولوجيا زائفة في حين أن مصالح الطبقات التقدمية الثورية تساعد على تجسيد إيديولوجيا علمية حقيقة...." (2)

هذا، و قد انبثق في مجال العلوم الإنسانية العديد من المجالات الجديدة، و من أهمها علم اجتماع المعرفة، الذي عني بتحديد ما إذا كان لانضواء الإنسان في الحياة الاجتماعية أي أثر في معرفته و فكره و ثقافته و نوعية هذا الأثر. و أصبح علم اجتماع المعرفة بفضل **"كارل مانهايم"** مجالا لإعادة تقدير الفعل المعرفي، و إبعاده عن حصيلة الوعي النظري الصرف، ذلك أن هناك عناصر لا نظرية كثيرة مصدرها انخراط الإنسان في النظام الاجتماعي. و في هذا الصدد يؤكد **"كار ل مانهايم"** أن " المعرفة إنما ترتبط بالوضع ومجموعة الظروف الاجتماعية التاريخية، و أن كل عصر إنما يعرض أسلوبه و طريقته الخاصة في التفكير، بحيث لا يمكن المقارنة بين هذه الأساليب و حتى ضمن كل عصر، لأن هناك ميولا متعارضة إزاء المحافظة و التغيير، فالأولى تنتج الإيديولوجيات، و الثانية تنتج الطوباويات، و بينهما على الأقل إمكانية التفكير الواقعي التام الذي يؤدي عمله من دون احتكاك في إطار الحياة، لا باتجاه اندفاع المجتمع إلى الأمام، و لا باتجاه تعطيل تقدمه (3). ولما كان **"مانهايم"** يرى وجود ميول قوية لاستقطاب المجتمع إلى أطراف متنازعة، فقد توسم في الأنتلجنسيا غير المتحيزة فئة قريبة من الحقيقة، و اعتقد في قدرتها على إحكام منظور شامل يؤلف بين رؤى العالم المتنازعة. و هكذا نشر كتابه " الإيديولوجيا و اليوتوبيا " عام 1936 ليسحب المفهوم الإيديولوجي إلى ميدان البحث الاجتماعي بعد أن ظل غائبا بشكل عام في المراجع و المعاجم الرئيسية، حيث لم تتضمنه موسوعة العلوم الطبيعية الصادرة عام 1932. و يمكن وصف مثال هذا التطور بأنه حلقة مهمة في وضع هذا المفهوم في سياقه الاجتماعي العلمي.

و في خضم التطور الذي عرفته سوسيولوجيا المعرفة كانت المفارقة البارزة إطلاق بعض المثقفين في الغرب شعار نهاية الإيديولوجيا الذي تزامن مع الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالي و الشيوعي بعد الحرب العالمية الثانية، و هو صراع استراتيجي وايديولوجي في جوهره. و قد فسرت الدعوة إلى نهاية الإيديولوجيا بإنجازات التقنية و وحدة الحلول التي فرضتها وحدة مشكلات العالم الصناعي، حيث انتفت الحاجة إلى المذاهب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السياسية و الاستقطاب الإيديولوجي، بفعل التقدم الذي يقوم بمعالجته لمختلف القضايا التي كانت الإيديولوجيا تتصدى لحلها... و فيما كانت أصداء هده الأصوات تتردد في أوائل ومنتصف سبعينيات القرن العشرين، كانت الإيديولوجيات القومية التحررية، تغطي مساحة من التجارب التاريخية المتنوعة و تتبنى مشكلات التنمية الوطنية، و تمنح مفهوم الإيديولوجيا محتوى جديدا يتصل بالمعاناة الإنسانية العميقة للشعوب المستعمرة. لم تعد الإيديولوجيا أفكارا قبلية و تصورات مغلقة، أو وعيا زائفا يعبر عن الطبقة السائدة، بل أصبحت منهجا يترجم آمال أمم بأكملها في التقدم و التحرر وتقرير المصير.

و لما جاءت نهاية القرن العشرين التي انهارت فيها التجربة الشيوعية في الإتحاد السوفيتي و دول شرق أوروبا، تجدد الحديث عن فكرة نهاية التاريخ بانتصار الديمقراطية الليبرالية و اقتصاديات السوق بصورة حاسمة حتى بدا وفقا لنظرية " نهاية التاريخ " "لفرنسيس فوكوياما **F.FOUKOUYAMA** "أن هناك ممرا إجباريا واحدا للتاريخ و خيارا لا بديل عنه هو النظام الرأسمالي العالمي. و هكذا تتابعت الإصدارات ذات الطبيعة الإيديولوجية، و بموازاتها الدراسات النقدية للإيديولوجيا، حاملة في طياتها جدلا فكريا واسعا، مما يجعل بيان حقيقة هذا المفهوم أمرا ذا دلالة، و هو ما سوف نتطرق إليه بإسهاب في الفقرات الموالية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner